روضة الحكايات!!
(٢)

أتريدُ العِلمَ أَم العمل

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

obeikandl.com

﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾

كانَ للمحاضرةِ التي ألقاها الطالبُ (سعيد) وَقْعٌ كبيرٌ في نفوسِ أهلِ البلدةِ ، حيث أصبحتْ حديثَ الناسِ ، وخاصةً في اللقاءاتِ والسهَراتِ الصيفيةِ ، حتىٰ إن الأستاذَ (هاشم) قال لأصدقائه ذاتَ ليلة :

إذا كان الصغارُ والناشئةُ يقدّمون أمثالَ تلك المحاضرةِ التي ألقاها (سعيد) فماذا عنّا نحن الأساتذةَ ، وقد تجاوزْنا الخمسين والستين من العمر؟!

وأما مديرُ المعهدِ فقد تلقّىٰ كثيراً من الاستفسارات.. والطلَباتِ عن الأمورِ التي تُشْتَرَطُ في تقديمِ المحاضرات ، وعن كيفيةِ الترشيحِ لذلك... ، وعن المَحاورِ التي تدور حولَها المُحاضراتُ القادمة و... .

وفي خُطبةِ الجمعة تَحدّثَ خطيبُ المسجدِ عن تفسيرِ قولِ الله تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] .

ومما جاء في كلامه : أيها الإخوةُ المؤمنون! إنّ الله تعالىٰ يَنْدُبُ عبادَه للتسابُقِ في فِعْلِ الخيرات ، ومن فَضْلِه وكرمِه سبحانَه أنه لم يُحدِّدْ مجالاتِ الخَيرات ، إنما اعتبرَ أن كلَّ ما يعودُ بالنفع علىٰ عبادِ الله هو مجالٌ رَحْبٌ للخيرِ...

ثم ذكرَ مِثالاً واقعياً عن التنافُسِ في الخَيراتِ ، وهو إلقاءُ المحاضراتِ العامة وتقديمُ العلومِ والمعلومات للآخرين ، وذلك بهدفِ إخراجِهم من ظُلُماتِ الجَهْلِ إلىٰ نورِ العلم ، وأثنىٰ الشيخُ علىٰ الفكرة.. ، وشَجَّعَ الشبابَ علىٰ أن يَرْتادوا أمثالَ تلك المجالاتِ ، ليتدرَّبوا عليها.. ويزدادوا علماً إلىٰ عِلْمِهم ، وفِكْراً إلىٰ فكرهم ، وثقافةً إلىٰ ثقافتِهم...

وفي مصلّى النساء ، وبعد صلاةِ الجمعةِ قدّمتِ النسوةُ التبريكاتِ والتهانيَ لوالدةِ الشاب (سعيد) وتمنَّيْنَ له دوامَ السعادةِ، وعَبَّرْنَ عن رَغبتِهنّ في أن يُلقيَ المزيدَ من المحاضراتِ التي تَنفعُ أولادَ البلدةِ...!!

* * *

obeikandl.com

في رِحابِ المكتبةِ العامة

وفي صبيحةِ يومِ السبتِ ، ذهبَ (صالح) إلىٰ المكتبةِ العامّةِ ، وراحَ يُطالعُ بعضَ الكتبِ والمجلّدات .

وبينما هو يقرأ في أحدِ المراجع مرّتْ معه قصةٌ أعجبتْه ، مُلَخَّصُها :

بعد أن أُخرجَ سلطانُ العلماءِ (العزّ بن عبد السلام) من السجنِ ، أقام مدةً بدمشقَ ، ثم انتقل منها إلىٰ بيتِ المقدس ، فوافاه الملكُ الناصر (داود) في غَورِ الأردن ، فقطعَ عليه الطريقَ ، وأخذَه ، فأقام عنده بنابلسَ مدةً ، وجرتْ له معه خطوب ، ثم انتقل إلىٰ بيت المقدس ، وأقام بها مدة .

ثم جاء الصالح إسماعيل ، والملكُ المنصورُ صاحبُ حمصَ ، وملوكُ الفِرَنْج ، بعساكرِهِم وجيوشِهِم إلىٰ بيتِ المقدسِ ، يَقْصِدونَ الدّيارَ المِصْرية .

فسَيَّرَ الصالحُ إسماعيل بعضَ خواصِّه إلىٰ الشيخ بمِنْدِيلِهِ ، وقال له : تَدْفَعُ منديلي إلىٰ الشيخ ، وتَتلطَّفُ به غايةَ التلطّف ، وتَستنزلُه ، وتعِدُه بالعَودِ إلىٰ مناصبِه علىٰ أحسنِ حال ، فإنْ وافقَكَ فتدخل به عليَّ ، وإن خالفَكَ فاعتقلْه في خيمةٍ إلىٰ جانب خيمتي .

فلما اجتمعَ الرسولُ بالشيخِ شَرَعَ في مُسايَسَتِهِ وملايَنَتِهِ ، ثم قال له : بينَك وبين أنْ تعودَ إلىٰ مناصبِك وما كنتَ عليه وزيادةٍ ، أن تَنكسرَ للسلطانِ ، وتُقبِّلَ يدَه لا غير .

فقال : يا مسكينُ! ما أرضاه أن يُقبّل يدي ،

فضلاً أنْ أقبِّل يدَه ، يا قومُ أنتمْ في وادٍ ، وأنا في واد ، والحمدُ لله الذي عافاني مما ابتلاكُمْ به!!

فقال له : قد رَسَمَ لي إنْ لم تُوافق علىٰ ما يُطلبُ منك وإلا اعتقلْتُكَ .

فقال : افعلوا ما بدا لكم ، فأخذَه ، واعتقلَه في خيمةٍ إلىٰ جانب خيمة السلطان .

وأراد السلطانُ إسماعيل أن يَتبجَّحَ أمامَ الأعداءِ من الفِرَنج بما فعلَ بالشيخ ، فسَخِروا منه ، وقالوا له : لو كانَ هذا قسِّيسَنا لغسلْنا رِجْلَيْهِ ، وشَرِبْنا مَرَقَها!!

... وتَعجَّبَ (صالح) من بطلِ هذه القصة ، وقال في نفسه : لا بدّ أن أبحثَ عن ترجمةٍ وافيةٍ عن حياة سلطانِ العلماء : العزّ بن عبد السلام ، وسأكتبُ ملخّصاً مفيداً عن ذلك ، وأقدّمه محاضرةً في المركزِ ، فأنا لستُ بأقلَّ من (سعيد) ذكاءً

ولا مثابرةً ولا اجتهاداً ، وها هي المكتبةُ الوطنية تَزخرُ بالمراجعِ والمصادرِ وكتبِ التاريخِ والسِّيَرِ والتراجِمِ...

وهكذا كان ، حيث ثابرَ (صالح) علىٰ البحثِ والمطالعةِ ما يُقارِبُ من أسبوعٍ ، حتىٰ تكوّنت لديه ترجمةٌ وافيةٌ عنه ، فَعَرَضَها علىٰ أستاذِه ، فنقَّحَها وصحّح بعض الأخطاءِ فيها ، ثم صَحِبَه إلىٰ مدير المعهد ، وتشاوروا علىٰ موعِدِ المحاضرةِ ، ثم اتفقوا علىٰ أن تكونَ مساء يوم الخميسِ القادم .

ومضتِ الأيامُ سراعاً ، وكانتْ أمسيةُ الخميس أمسيةً تاريخيةً دينيةً ، حيث قَدَّمَ (صالح) فيها ترجمةً عن أحدِ الفقهاء الأعلام ، ومُلَخَّصُ ما جاء فيها :

* * *

في دمشق الشام

وُلِدَ (العزّ بن عبد السلام) في دمشق ، وذلك سنة (٥٧٧هـ) ، ونشأ وترعرعَ في أكنافِ العلماءِ ، فحَفِظَ القرآنَ الكريم منذ صِغَرِه ، ودَرَسَ علومَ العربيةِ والشريعةِ ، وتولّىٰ الخطابةَ بالجامعِ الأمويّ ، إضافةً إلىٰ التدريس والقضاء والإفتاء ، وبَرَعَ في فنونِ التفسيرِ والفقه والحديثِ ، والأصول والعربية ، حتىٰ بَلَغَ رتبةَ الاجتهاد...

ولم يكتفِ من علومِ أهلِ الشام ، فرحل إلىٰ بغدادَ وأخذَ من فِطاحِلِ علمائها ، ثم يَمَّمَ وجهَه شَطْرَ بلادِ الحرمين ، فحجَّ بيتَ اللهِ الحرامَ ، والتقىٰ بكبارِ العلماء ، فأخذَ منهم وأخذوا منه ، ثم رَحَلَ إلىٰ مصر فاستلمَ مَنْصِبَ قاضي القضاة ، إضافةً إلىٰ الخطابة في مسجدِ عمرو بن العاص ،

والتدريسِ في أكبرِ مساجدِ مصر...

وأهمُّ شيوخِه : فخر الدين بن عساكر ، وابن الحرستاني ، والآمدي ، وعبد اللطيف البغدادي . وأما تلامذتُه فكُثُرٌ ، منهم : ابنُ دَقيقِ العيد ، وأبو شامة وغيرهما...

وأهمُّ صفاته الخُلُقية : الورعُ والتقىٰ ، والزُّهْدُ والنصيحةُ لعبادِ الله، والتصدُّق علىٰ الفقراء والمساكين .

ومن ذلك ما أوردتْه كتبُ التراجم : لمّا كان الشيخُ عز الدين بدمشق وقع مرة غلاءٌ كبير حتىٰ صارتِ البساتينُ تُباع بالثمنِ القليلِ ، فأعطتْهُ زوجتُه حُليّاً لها ، وقالت : اشْتَرِ لنا به بستاناً ، نُصَيِّفُ فيه ، فأخذ ذلك الحليَّ وباعه وتَصَدَّق بثمنِه .

فلما عاد إلىٰ بيته سألتْهُ زوجتُه : هل اشتريتَ لنا بستاناً؟

فقال : نعم .

قالت : وأينَ مكانُه؟

قال : لقد اشتريتُ لكم بستاناً في الجنة ، إني وجدْتُ الناسَ في شِدَّةٍ فتصدّقْتُ بثمنِه ، فقالتْ له : جزاكَ اللهُ خيراً!!

* * *

في بحارِ العلم

تابع (صالح) الحكايةَ بالقول :

وفي هذا الوقتِ ، ترىٰ غالبيةَ التلاميذِ والطلابِ يضجرون من الوظائفِ والقراءةِ والكتبِ ، ويشتكونَ من كثرةِ ذلك عليهم... ، ولكنْ لو يعلمُ أمثالُ هؤلاءِ كم كان أجدادُنا يتعبون من أجلِ تحصيلِ العلوم ، لرأَوا الفارقَ الكبيرَ بين ما كان عليه أجدادُنا وبينَ ما آل إليه حالُ الكثيرِ منّا في هذا الزمان...

فسلطانُ العلماءِ كان رجلاً موسوعيّاً ، حيث حَصَّلَ الكثيرَ من العلوم ، ونوّع فيها أيضاً .

ففي رحابِ علومِ القرآن الكريم حصَّلَ الكثيرَ الكثير ، وعَقَدَ أولَ حَلْقةٍ علميةٍ في المسجد الجامع ، درَّسَ فيها علومَ التفسير ، وكَتَبَ في ذلك كتباً رائعة مفيدةً ، منها : (الإشارة إلىٰ الإيجازِ في بعضِ أنواع المَجاز) ، و (تفسير القرآن العظيم) ، و(مُخْتَصَر تفسير النكتِ والعُيون للماوردي)...

وفي رِحاب علومِ الفقه درس وأفتىٰ واجتهدَ ، وكتبَ بعضَ الكتب أيضاً ، أهمها : (الغاية في اختصار النهاية) ، و(الجمع بين الحاوي والنهاية) ، و(أحكام الجهاد وفضله) ، و(مقاصد الصلاة) ، و(مقاصد الصوم) ، و(مناسك الحج)...

أما في مجالاتِ الاجتهادِ والأصولِ ، فقد ساحَ (العزّ بن عبد السلام) وشرّق وغرّب ، واستنبطَ الكثيرَ من الأحكام ، ومن أهمِّ كتبِه في ذلك : (القواعد الصغرىٰ) ، و(الإمام في بيان أدلة الأحكام) ، و(قواعد الأحكام في مصالح الأنام) ، و...

وفي رِحاب الحديثِ والسيرة كان له كتبٌ هادفة ، أهمها : (شرح حديث لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ) ، و(مختصر صحيح مُسْلم) ، و(قصة وفاةِ الرسولِ ﷺ) ، و(ترغيب أهلِ الإسلامِ في سُكْنىٰ الشام) ، و(بداية السُّوْلِ في تفضيلِ الرسول ﷺ)...

* * *

فالذِّكر للإنسان عمر ثانٍ

وتابعَ (صالح) حكايتَه الرائعةَ قائلاً :

وهكذا عاشَ (العزّ بن عبد السلام) حياةً مليئةً بتحصيلِ العلمِ ، ومجاهدةِ النفسِ والشياطينِ ، والجَهْرِ بالحقِّ ، والجهادِ في سبيل الله تعالىٰ .

وقدَّم للأمةِ خيراً كثيراً ، حتىٰ أصبحَ إحدى المناراتِ السامِقَةِ ، لذلك نالَ ـ بحقّ ـ لقبَ سلطانِ العلماءِ ، ولقبَ القائمِ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ..

وفي سنة (٦٦٠هـ) وافتْه المنيّةُ ، فرحلَ إلىٰ خالقِه وبارئِه ، وحَزِنَ عليه المسلمون حُزْناً كبيراً ، حتىٰ إن الظاهرَ بَيْبَرْس تأسَّفَ عليه ،

وشاركَ في حَمْلِ نَعْشِه ، وحَضَر دَفْنَه ، فرَحِمَه الله رحمةً واسعةً ، فقد أفادَ وأجادَ ، وسُجِّلَ اسمُه في سجلاتِ العلماء الخالدين ، وصَدَقَ الشاعر حيث قال :

ارفعْ لنفسِكَ قبلَ موتِكَ ذِكْرَها
فالذِّكْرُ للإنسانِ عُمْرٌ ثانٍ

ورتلَّ شيخُ المسجد قول الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧- ٣٠] .

فسلامٌ علىٰ (سلطان العلماء) في الأولين والآخِرين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

* * *